

فعل القراءة و صناعة المعنى من التراث العربي إلى ياؤس و إيَزَز

The Act of Reding and the Construction of Meaning From Arabic Heritage to jauss and Iser

د. حكيم بوغازي^{1*} ، د. سعاد نكاع²

¹ جامعة مستغانم، (الجزائر)، hakim.boughazi@univ-mosta.dz

² جامعة مستغانم، (الجزائر)، souad.nekkaa@univ-mosta.dz

تاريخ النشر: 2025/10/01

تاريخ المراجعة: 2025/09/26

تاريخ الإيداع: 2025/07/05

ملخص:

يستند هذا البحث إلى فعل التماسف الدوكسولوجي بالمعنى المنطقي الذي يحقق المسافات الذهنية تقريبا للمصطلح المنشود، وهو محاولة تأصيل مفهوم و فعل القراءة داخل المنجز التراثي وإن تعددت الأسباب و المفاهيم والاصطلاحات، ثم تأسيس رؤية اصطلاحية نقدية أعادت إلى حد ما الاعتبار إلى القارئ باعتباره شريكا في عملية إنتاج المعنى بالمفهوم الحديث الذي أطلت علينا به النظريات الحديثة(التلقي، القراءة، الشعريّة، البنيوية...) وغيرها .

ينطلق هذا البحث من التراث إلى الحداثة(تجوّزا) ليستكنه الإشكالات التالية: ما حدود تأصيل مفهوم القراءة تراثيا ضمن السياقات الثقافية والدينية والمعرفية القديمة؟ وكيف نقرأ تلك المدونات في ضوء النظريات النقدية الحديثة، خصوصا وأنها اشتملت على التراكمات الابستمولوجية والأنطولوجية .

الكلمات المفتاحية: فعل القراءة، صناعة المعنى ، التراث العربي، القارئ، التلقي

Abstract:

This research is anchored in doxological convergence in its logical sense – a process that achieves near conceptual approximation of the desired term. It constitutes an attempt to root the concept and practice of reading within the heritage corpus, despite the multiplicity of causes, concepts, and terminologies, while establishing a critical terminological framework that partially restores the reader's status as a partner in meaning production – a modern concept introduced through contemporary theories (Reception Theory, Reader-Response, Poetics, Structuralism, etc.).

Departing from heritage to modernity (broadly construed), this research probes the following questions : What are the limits of grounding the concept of reading within classical heritage across ancient cultural, religious, and epistemological contexts ? And how might we read these classical texts through modern critical theories – particularly given their embedded epistemological and ontological accumulation

Key words: *The Act of Reding; Construction of Meaning; Arabic Heritage; Reception Theory; Reader.*

* المؤلف المراسل.

1- مقدمة:

إنّ المستقري لتنظيرات المنجز التّقدي والبلاغي العربي القديم لما اصطلح عليه حديثاً "نظرية القراءة/فعل القراءة"، يلامس إلى حدّ كبير الممارسات القرآنيّة في النّصوص التّراثيّة، نخصّ بالذّكر ههنا المدوّنة البلاغيّة والنّقديّة التي استأثرت بهذه الخصيصة المائزة عند ما كتبه حصراً [الجاحظ (ت255هـ)، وابن طباطبا العلوي (ت322هـ) وعبد القاهر الجرجاني (ت471هـ)]، وغيرهم.

يستند هذا البحث إلى فعل التّماسف الدّوكسولوجي بالمعنى المنطقي الذي يحقّق المسافات الدّهنية تقريبا للمصطلح المنشود، وهو محاولة تأصيل مفهوم و فعل القراءة داخل المنجز التّراثي وإن تعدّدت الأسباب و المفاهيم والاصطلاحات، ثم تأسيس رؤية اصطلاحية نقديّة أعادت إلى حدّ ما الاعتبار للقارئ باعتباره شريكاً في عمليّة إنتاج المعنى بالمفهوم الحديث، الذي أطلّت علينا به التّظريات الحديثة (التّلقي، القراءة، الشّعريّة، البنيوية...) وغيرها .

ينطلق هذا البحث من التّراث إلى الحداثة (تجوّزا) ليستكنه الإشكالات التّالية: ما حدود تأصيل مفهوم القراءة تراثياً ضمن السّياقات الثّقافيّة والدينيّة والمعرفيّة القديمة؟ وكيف نقرأ تلك المدوّنات في ضوء التّظريات التّقديّة الحديثة، خصوصا وأنها اشتملت على التراكمات الابيستمولوجية والأنطولوجية .

ثم إنّ طبيعة الموضوع تفرض على محكّ التّظر الالتزام بتعضيد المناهج القرآنيّة، فمن التّاريخي نحوز الإبانة عن مخزون المنجز التّراثي العربي (نقده وبلاغته وأدبه) ثم الاستعانة بجهاز التّحليل في إبراز الخصائص اللازمّة للبحث والتنقيب والاستقراء، وإذا كان العمل ينشغل ببيان أسس نظرية التّلقي والقراءة بوجه عام، فإنّ التوجّه نحو شرعة مناهج نظرية التّلقي اتّخذناه مألفاً في التّعامل مع نصوص بارت ويائوس وإيزر وغيرهم، ممّن شغلهم بحث التّلقي والقراءة ومكونات النّصوص.

وقد ابتدأ البحث استقراء العمل في نظرية التّلقي كمهاد نظري، ثم التّعريح على بيان ما تناقلته أقلام مدرسة "كونساتنس" حتى نضع القارئ في كنف الدّراسات الحداثيّة وما آلت إليه جلّ أعمالهم اختصاراً، ثم بيان ذلك في منجزنا التّراثي كمرحلة تأسيسية نمت في ظروف قرآنيّة وعلمية وفكرية معيّنة ومخصوصة من خلال اهتمام علمائنا بالنّص نظمه ونثره ومتوالياته فصاحة وبلاغة، ومن ثمّ عنايتهم بالسّامع والمتلقي (الجمهور) وما يشترط وما لا يشترط، حسب ما وصل إليه عملنا هذا وغيره، ثم إنّ هذه الرّحلة الفكرية في حركتها الارتدادية بين التّراث التّقدي العربيّ إلى آراء يائوس وإيزر ترمي:

- إبراز تحوّل القراءة من فعل تلقّي سلبيّ إلى ممارسة إبداعية خلاقية.
- تبيان فاعليّة الفعل القرآنيّ في إعادة إنتاج النّص وتجديد المعنى.

- الكشف عن نقاط الالتقاء والاختلاف بين التّصوّرات الحداثيّة والرّؤى التّراثيّة العربيّة.

2- المهاد النّظري:

إنّ الكلام عن نظرية التّلقّي سواء في مقامها النّظري أو التّطبيقي، لا يتمّ سبر غوره من دون فحص المهاد والتّأسيس الأوّل الذي يقول فيه Jean-Paul Sartre سارتر (1905-1980) "...لا تقوم فقط على أساسية أو ضرورة النّص فقط، بل وعلى أساسية الدّات القارئة أيضا، فهذه الأخيرة لا تستكشف النّص في مكوّناته الماديّة الملموسة فحسب، بل وتخلق موضوعه الجمالي ابداعا، لأنّ النّص لا يقوله أبدا ولا يحدده بأي حال من الأحوال"¹، وهذا المنطلق جعل القراءة إبداعا - إن جاز القول- من الدّرجة الثّانية، و نفوذا يلامس المكنون قبل الدّات الفاعلة بالقوة لا بالفعل.

إنّ " المعنى ليس مجموع الكلمات، بل هو كليتها العضوية، ولن ينجم أي شيء إذا لم يضع القارئ ذاته في مستوى هذا الصّمت"²، فهذه الشّمولية المخصوصة بالصّمت تُسهم في المعنى الذي يفرضه النّص والقارئ، ويصبح "النّص هو الوسيط الذي نفهم عبره لا أنفسنا"³، وهو دلالة على تهيئة الخصائص المائزة لكل نص على آخر من منطلق التّفصيل لا التّعليل.

وبالإجمال فإنّ التّفكير الفلسفي لمعطى اصطلاح القراءة لا يعني "أكثر من تجميع المعاني المتناثرة للكشف عن مقصدية المؤلّف"⁴، يتمظهر ذلك في حدود ما قاله أفلاطون (عاش 427 ق.م - 347 ق.م) عن وجهة النّص بعد كتابته، حيث يراه "يسير في كل الاتجاهات عند من له علم ومعرفة به، وعند من لا شأن له به، إنّه يجهل إلى من يجب أن يتوجّه..."⁵، هذا السّير من شأنه صناعة قارئ ومعنى للدلالة المتوارية خلف الخطاب، وما القراءة إلّا بحث وتنقيب عن السّبيل الموصل لفهم جدلية هذه الدّلالة التي قد يتخفى من ورائها النّاص.

و جملة الأمر فإنّ الدّلالة النّصيّة التي يستقري القارئ تشظّياتها المتوارية، لا تحصل بمجرد الكتابة على البياض، ما لم ترق إلى المشهد القرائي المتفحص لمدايلها ومنهاجيتها الجوهرية، وعلى هذا الأساس يدّعي بارث (Roland Barthes 1980-1915) أنّ الثّنائية القديمة العمل/المؤلّف تضمحلّ وأنّ ثنائية كتابة/قراءة تعتبر نواة نظرية القراءة الجديدة، وإن كانت في اعتقاده لم تنضج بعد سنوات الثّمانينيات.

يعتقد (Jean-Paul Sartre) أنّ القراءة "عملية حسّية، ... وفي ما عدا هذا لا يوجد سوى علامات سوداء على الورق"⁶، إذ اقتران تفكيك رموز الكتابة مرهون إلى حدّ ما بالكشف عن الدّات الفاعلة التي تنتج لنا قراءة متفحّصة بالمفهوم البارثي، على اعتبار أنّ القراءة فهم وجودي للعالم إدراكا وإلزاما، مع تحيين الدلالات العابرة التي تكتنف النّصوص فهما حقيقيا لا مجرد صناعة أصوات تتكرّر، إذ الحقيقة الخفيّة أنّ متواليات الجمل النّصيّة تتزاحم فكرا ومعنى باحثة عن السّبيل إلى خروجها للعلن، فالقراءة فعلا تشاركيا متعدّدا.

ومن هنا يمكننا القول حسب (William Ray 1937-1876): "من الصَّعب علينا أن نزعم أن الدَّات تمحو نفسها أثناء القراءة"⁷، هذا المحو هو التَّصحيح الفعلي لنموذج القارئ العملي، بل هو تمازج بين النَّص وسلطة القراءة، حيث "الكتابة بدون قراءة لا تعدو كونها رسالة ميتة"⁸، شريطة أن تكون هذه القراءة ما تبحث عن الدَّلالات اللامتناهية التي تكتنف النَّصوص، وفضَّ سلسلة الرموز المتوارية في النَّص، إنها "فضاء ممتد خارج القوانين التي تحرم التناقض"⁹، دون الميل نحو التنازع اللَّفظي الذي يقوِّص دعامة القراءة الحيَّة، فالقراءة كتابة ثانية بصوت آخر استنطاقا دلاليا لا فهما مُحاثا.

وإذا كان النَّص "تأليفا وتجميعا لنواة الحقيقة"¹⁰، فإنَّ العمل الفينومينولوجي سعى إلى الحرص على محدّدات العمل الفني بكل أطره، كما ادَّعى الرِّبط بين الدَّات والموضوعات، ومن هنا أمكننا التَّمييز بين "البنية الأنطولوجية للنَّصوص وأفعال الإدراك والفهم لدى الدَّات القارئة والموضوعات الجمالية التَّاجمة عنها"¹¹، هذا التَّصور يجعلنا ننظر إلى نظرية القراءة تُزاحم الأنساق المتعدّدة التي وُضعت ضمن سياقات النَّصوص، بحيث يصبح القارئ مبدعا مشاركا في بناء المعنى، وهو اعتقاد سار فيه إيزر (Wolfgang Iser 1926-2007) في حديثه عن البنيات المتعدّدة في النَّص، والتي ترسم مسارات مختلفة لاحتمالات المعنى، وهي تشترط أساسا وحيدا وهو اندماج القارئ في النَّص، إذ يقول في معرض التأكيد: "ينبغي أن نتذكّر أن كل من أراد فهم اللُّغة يجب عليه أن يفهم أكثر من تلك اللُّغة"¹² وهو فهم يتشارك في تفسير التعدّد الدَّلالي للنَّصوص فقها للُّغة المانحة للمعنى.

3- "القراءة/التلقي" معيار التقبّل:

تأسست نظرية التلقي (Hans Robert Jauss 1921-1997) كثورة على البنيوية الوصفية، وشعورا بالتدمر العام من المناهج الكلاسيكية التي اعتمدت على الكتابة والمؤلف لأغية بذلك التلقي الذي بدأ يصنع معيار المعنى بعد فك الدَّلالات المتوارية، كما أن قيامها أندر بالاضطراب النَّقدي الحديث الذي ستولد من رحمة نظريات تحلّ محلّ القديم.

تنبني نظرية التلقي (التقبّل) عند يَأُوس Hans Robert Jauss على معيار "دراسة الأثر الأدبي عبر تاريخ التلقي... والتعامل مع الأدب كجدلية بين الانتاج والاستقبال..."¹³، ومن هنا نستطيع الممايزة بين قراءة النَّصوص دون جمهور متلقٍ وبين خروج النَّص للعلن .

ثم انبنت في معيارها التَّخصّصي على الإحاطة بالكيفية التي تم بها تلقي النَّص ضمن سيرورة تاريخية معينة رفض بعضها يَأُوس وأنكر أخرى وتقبّل ما زعمه غُولدَمَان (Lucien Goldmann 1913-1970) ولُوكَاتش (1885-1971) Georg Lukács على استحياء وفق شروط خاصة مع عنايته التَّقريبية بدعوى الشُّكلانيين على اعتبار اهتمامها الأدبي والجمالي بالنَّص.

أما نظرية التأثير-إيّر- وإن كانت تحتكم إلى "الخاصية التأثيرية التي توجد داخل النص والتي تحركها البنيات الداخليّة، مستندة إلى المناهج النظرية والنصية، ويكمل التعامل مع النص حين يتم التأليف بين هذين الاتجاهين المتكاملين والمتداخلين"¹⁴، فإن إيّر ركّز على الجمالية السنكرونية التي "تكمن في العلاقة الجدلية بين النص والقارئ"¹⁵ محدداً بذلك مجموعة متعدّدة للقراء على غرار القارئ الحقيقي والقارئ الضمني والافتراضي والمثالي والأعلى، على اعتبار أنّ الهدف الأسمى هو الأثر الذي يتركه النص بعد تلوّنه بلون مخزون التجربة وعلاقتها بإنتاج المعنى.

وهكذا يجد القارئ ذاته بين مسارين متوازيين هدفهما "تشرح عملية القراءة ذاتها بإبراز مختلف آلياتها وحالات أطرافها و كفاءات تفصل التأثير والتلقي خلالهما، وكل ذلك يتوجيه من خلفيات فنومنولوجية، وهيرمنوطيقية بارزة"¹⁶، كما صرح بذلك إيّر و ياؤس.

إنّ عملية التخصيب بين الذات القارئة والنص، تنبني على التفاعل القائم بينهما، وهذا تنشأ خصوصيات المعاني بعد المد التاريخي والجمالي للنص، ثم اعتبارات عدّة تكتنف هذه المرحلة، من مصطلح أفق الانتظار (مستعارة عن الظاهرانية) والتهيؤ والتوقع والإدراك والمسافات الجمالية وغيرها من البنيات الاصطلاحية التي غدّت هذه المدرسة، وهي قضايا حُسمت نقدياً في ربوع النظريات النقدية الحديثة والمعاصرة تصديقا لمعيار "أنّ كينونة اللّغة تخترق كينونة الوعي"¹⁷، ولن يتحقّق ذلك إلا بحسن الإصغاء للنص دون إيقافه.

ومختصر الأمر، فإنّ جمالية التلقي- اعتبرت منطق التفاعل بين التلقي والتأثير الوجودي الجمالي والتاريخي التأثيري، تلقيحا بين النص والقارئ، ويصبح هذا الأمر مناط "تفاعل دينامي بين معطيات النص والخطّاطة الذهنية للمتلقي بما فيها رغباته وردود أفعاله"¹⁸، لتصبح بذلك مدرسة كونستانس واحدة من النظريات الحديثة التي أرخت للقارئ وأسست للمعنى.

4- فعل القراءة في التراث العربي/المعنى والمرجع:

اجترح التراث العربي القديم قيمة فنية وعلمية كشفت عن مكنون الفكر العربي عبر قرون من الزمن، حيث اتخذ من النص القرآني مرجعية البحث المثلى، ومن النظم مألفا للمراجعة التفسيرية والاصطلاحية والتحقيقية، فعنّ له البحث زاخرا بعلوم تزاخمت في مدونات استأثرت بالتنقيب عن الممارسة الفعلية لدرس النقد والبلاغة والنحو والصرف والعلوم العقلية والشعرية.

ولعلّ مقام البحث الذي سلكناه شرعته ههنا ينصب على درس النقد والبلاغة أين يؤول البحث إلى استكناه دور المتلقي والنّاص في محور دوران الكتابة التي عبّرت عن مكنون النفس صناعة شعرية ونثرية، فخرج من رحم هذه الصنّاعة اصطلاح الفصاحة والبلاغة والبيان والبديع، "لذا رأينا نقدنا القديم يوليهم قدرا من الأهميّة

والعناية، فكما بين سنن القول وطرائقه، وجيده ورديته، اهتم واعتنى بالمستقبل، وقصده بخطابه النقدي، وحث أصناف المتكلمين على إفهامه ومراعاة أحواله¹⁹، هذه الثنائية التي انبرى لها النقد سعت إلى تحصيل واكتساب اصطلاحات جديدة منها حسن السبك والتدبيح والتطريز وملكة النظم ومزية اللفظ وغريب المعنى وحثي الكلام وغرابة القول، ولا يستقيم ذلك إلا بوجود السامع والدوق وملكة التحصيل، يقول الجاحظ (ت255هـ): "مدار الأمر على البيان والتبيين، وعلى الإفهام والتفهم، وكلما كان اللسان أبين كان أحمد، كما أنه كلما كان القلب أشد استبانة كان أحمد، والمفهم لك والمتفهم عنك شريكان في الفضل²⁰"، و للغاية نفسها عمد النقد إلى تخير الألفاظ الجزلة ذات البيان والتبيين، و موافقتها لأوعية المعاني التي تحصل في الذهن لدى السامع، حيث يتحقق الغرض المقصود عند إحاطة القول بالمعنى.

1.4- الفصاحة والتلقي/ زوايا التثاقل والتباين :

الفصاحة "مشكلة اللفظ للمعنى"²¹، وقد جاء في لسان العرب (مادة فصح) يدل في مجمله على الظهور والإبانة والبيان، وموافقة اللفظ للمعنى، وقد جعل ابن البناء المراكشي (ت721هـ) لذلك مقومات فقال: (... فإذا اجتمع على الكلام أن يكون لفظه فصيحاً لسهولة مخارجه وعدوبته في السمع وسهولة تصوّر معناه، وحسن مبانيه بالمشكلة العقلية والنظام الطبيعي واتّسع الفهم في لوازمه فهو العالي الدرجة)، فهذه شروط قد وضعها الجاحظ (ت255هـ) وقدامة ابن جعفر (ت337هـ) دون فصل ما بين البلاغة والفصاحة، حيث ينبي القول كتابة وسماعاً على شروط منها:

- سهولة المخرج .

- حسن التصور الذهني أو العقلي .

- العدوبة في السمع .

- اتّسع الفهم = العالي الدرجة .

ولا ريب أن اتّسع الفهم يُصير اللغة "ليس كأداة أو وسيلة ولكن كمظهر للوجود الداخلي وللربطة النفسية التي توحدنا مع العالم ومع أنفسنا... وبهذا فهي تمثل الرموز الوجودية لعالم الذات..."²²، ففهم اللغة هو فهم الذات ولن يتحقق إلا في العناصر التي باشرها ابن البناء والجاحظ وقدامة وغيرهم، تحقيقاً لفضل السامع.

2.4- فصاحة الألفاظ والتراكيب:

يذكر محمد العمري أن "النشأة الأولى للبلاغة من مصدرين: داخلي وخارجي: الاكتشاف من الداخل وقد أنجزت عن طريق تأمل النص الشعري مباشرة، أي عن طريق الملاحظة المباشرة والاختيار الفني"²³ وبهذا يدرك جيداً، أن

الملاحظات المنهجية الوصفية الداخلية للنصوص وتوسعها خلال العصور المتعاقبة حتى ظهور البديع أي الجديد، ومن ثم إكساب البلاغة صورا وتعاريف انبثقت عن الخصومات، كما هو الشأن مع أبي تمام، واختياره على أسس جمالية في الحماسة.

ثم إنَّ أول من ربط بين فصاحة الكلمة وبناء المعنى في التراث العربي هو أبو العباس محمد بن يزيد المبرد (ت285هـ) الذي يقول صراحة: "...إن حقَّ البلاغة إحاطة القول بالمعنى واختيار الكلام ، وحسن النّظم حتى تكون الكلمة مقاربة أختها ومعاضدة شكلها ، وأن يقرب بها البعيد وتحذف منها الفضول"²⁴، فالمقاربة بين الكلمات ميزان التعبير وهو مساق التفكير نحو إفهام السّامع فالمشاكله اللفظية ههنا" تجعل النّص حيّا وفاعلا وحينما يساهم في تأسيس جماليته عبر التّأويل و الشّرح"²⁵، وهي أزمّة فعلية لنمطية القراءة التي وسيرورة المعنى التي قسّمها يَأْوُسُ إلى ثلاث مراحل متعاقبة، واكتفى إيزر Iser بقطبيها الفني والجمالي.

في حين يشير قدماءة بن جعفر(ت337هـ) إلى عيوب النّظم في الألفاظ، فمنها ما يكون سببا في الإعراض عن القول ورفضه من قبل السّامع، ومن أمثلة العيوب: الحوشي والغريب، والذي لا يُؤتى به في نظره إلا على جهة التّطلب والتّكلف ويكون بذلك سببا لينفر منه الطّبع و يمجّه السّمع"²⁶، وهي عيوب تخلّ بالمعنى بعد إخلالها بالنّسق الخطابي.

ويضيف أبو هلال العسكري(ت395هـ) قائلا: "...أحقّ العلوم بالتّعلم هو علم البلاغة ومعرفة الفصاحة، والإنسان إذا أغفل علم البلاغة وأخلّ بمعرفة الفصاحة ، لم يقع علمه بإعجاز القرآن من جهة ما خصه الله به من حسن التّأليف وبراعة التركيب ، وما شحنه به من الإيجاز البديع"²⁷، وهي دعوة إلى التقرب من البلاغة على وجه يُعرف به بيان القرآن وصناعة النّظم والكلام من أوجه ثلاثة: حسن التّأليف، براعة التركيب، الإيجاز أساس البلاغة.

أما في حديثه عن طبيعة الالتئام بين الألفاظ بعضها ببعض وعلاقتها بالنّظم والسّامع يقول: "وتخيّر الألفاظ، وإبدال بعضها من بعض يوجب التئام الكلام؛ وهو من أحسن نعوته وأزين صفاته، فإن أمكن مع ذلك منظوما مع حروف سهلة المخارج كان أحسن له وأدعى للقلوب إليه"²⁸، ولأجل ذلك وجدنا الجرجاني (ت477هـ) يجعل الكلام على ضربين: ضرب أنت تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده ... وضرب آخر أنت لا تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده ولكن بذلك اللفظ على معناه الذي يقتضيه موضوعه في اللّغة."²⁹، ومناطق تفسير هذا التعبير يحيلنا إلى العلامات النصّية الموصلة إلى المعنى المتوراي، ولا يمكن فكّ الخطاب إلا بمعيار الاستدلال والفهم، فالمتلقي هو معيار تأويل النّص الذي أبان عن مخزون من الدّلالات المتوارية خلف الكلمات.

أما فصاحة الألفاظ المركبة فهي أشدّ تعلقاً بالبحث عند التّراثيين، فنجد السّكاكي (ت626هـ) جعل الفصاحة متعلّقة باللفظ والمعنى، في قوله "...خلوصه من التّعقيد،...والمراد بتعقيد الكلام هو أن يعترّ صاحبه فكرك في متصرّفه، ويُشيك طريقك إلى المعنى، ويوعّر مذهبك نحوه حتّى يقسّم فكرك ويشعب ظنّك إلى أن لا تدري من أين تتوصّل وبأيّ طريق معناه يتحصّل"³⁰، ذلك أنّ التعقيد ههنا يطرح معنى عدم التواصل الحرفي الذي سمّاه حميد لحمداني بالامتلاء³¹.

ثمّ أبان ابن الأثير (ت630هـ) عن مذهبه في هذا الأمر فقال: "الكلام الفصيح هو الظاهر البيّن، وأعني بالظاهر البيّن أن تكون ألفاظه مفهومة لا يحتاج في فهمها إلى استخراج من كتاب لغة... فالذي يستلذه السّمع منها ويميل إليه هو الحسن، والذي يكرهه وينفر عنه هو القبيح"³²، وهذه الحالة من الحسن والتلذذ هي معيار التواصل الذي يستدعي القارئ فعلا إلى اقتحام بنيات النص المميّز.

ومن البيّن أنّ المنجز البلاغي العربي القديم قد أغنانا في البحث عن المساقات الفعلية التي تصنع النّص وتحيل على قراءات متتالية، إمّا بسياق السّماع والتلذذ أو إنشاء نصوص أخرى من رحم البدايات ، ولن يكون ذلك إلا بصناعة الكلمة وفصاحة اللفظ وحسن السّبك .

3.4- المتلقّي في التراث العربي: الفهم والإفهام :

يقول الجرجاني(ت477هـ)" واعلم أنّك إذا رجعت إلى نفسك علمت علما لا يعترضه الشك ، أن لا نظم في الكلم ولا ترتيب، حتى يعلق بعضها ببعض ويبني بعضها على بعض، وتجعل هذه بسبب من تلك، هذا ما لا يجمله عاقل ولا يخفى على أحد من الناس..."³³، هذا التّعالق بين مفردات النّص هو الوعي الحقيقي بمواقف التّأليف.

إنّ دقة التّصوير وسعة الإدراك عند الجرجاني، جعلاه يغلب النظرة العقلانية في تقدير الجمال الفني ومقدار التأثير الأدبي في المتلقي ، بحيث يجعل البديع مثلا يسقط المعنى إذا كثّر الإتيان به على شاكلة التّكديس فيقول: "...وقد تجد في كلام المتأخرين الآن كلاما حمل صاحبه فرط شغفه بأمر ترجع إلى ماله اسم في البديع، إلى أن ينسى أنه يتكلم ليفهم ، ويقول ليبين، ويخيل إليه أنه إذا جمع بين أقسام البديع في بيت فلا ضير أن يقع ما عناه في عمياء ، وأن يجعل السّامع يتخبّط خبط عشواء وربما طمس بكثرة ما يتكلّفه على المعنى وأفسده، ..."³⁴، فعنصر الفهم والإفهام والتبيين والتكلف والطّمس من مبرّرات الكتابة المفتوحة على تعدّد القراءات ، فالنّصوص التي تؤسّس علاقة فاعلة مع اللّغة مصدر إنتاجها الوضوح والبيان، وتلك المغلقة المكدّسة تخضع لتعدّدية لا نهائية وهكذا" ينتج النّص احتجاجا مزدوجا للقارئ والكاّتب"³⁵.

وقد سبق الجرجاني(ت477هـ) الجاحظ(ت255هـ) في معرض الحديث عن الفهم والإفهام وجدلية المعاني المهمة والمرسلة والمحفوظة فقال: "... قال بعض جهابذة الألفاظ ونقّاد المعاني: المعاني القائمة في صدور النّاس المتصورة في أذهانهم، والمختلجة في نفوسهم، والمتصلة بخواطيرهم، والحادثة عن فكرهم، مستورة خفية، وبعيدة

وحشية، ومحجوبة مكنونة، ... لا يعرف الإنسان ضمير صاحبه، ولا حاجة أخيه وخليطه، ولا معنى شريكه والمعاون له على أموره إلاّ بغيره، وإتّما يُحيي تلك المعاني ذكرهم لها وإخبارهم عنها واستعمالهم إيّاها³⁶، فسبيل الإحياء هو طريق الإفهام، ومعيار تقبل النصوص هو السّامع الذي عبّر عنه بقوله (إلاّ بغيره) (استعمالهم إيّاها)، فالاستعمال هو الكتابة الثانية التي تتحوّل من التّأليف إلى الإنتاج، فالنّص كما ادّعى أمبرتو إيكو Umberto Eco (1936-2016) ينتج اعتمادا على تعاون المؤلّف والقارئ.

5- خاتمة:

في نهاية هذا البحث، نستبين على أنّ الفعل القرائيّ لم يعد مجرد نشاط تلقّي ساكن، بل غدا ممارسة إبداعية فعلية فاعلة في إنتاج المعنى وإعادة تشكيله، ذلك أنّ المقارنة بين بين تصوّرات التراث النّقديّ العربيّ ورؤى مدرسة كونستانس قد أظهرت لنا أنّ القارئ ظلّ محورا لا يمكن تجاوزه في عملية التّأويل، وإنّ اختلافت درجات حضوره من تصوّر لآخر.

تجلّت لنا أيضا تلك الملامح الأولية لوعيّ تفاعليّ بين النّص والمتلقّي من خلال تركيز علمائنا على طرق بناء النّص وفقا لمعيار التّقبل عند القارئ حتّى يحصل الفهم والإفهام، في حين كانت آراء كل من يائوس وإيزر أكثر تطورا وتأسيسا لفعل التّلقّي، فقدّماه ضمن إطار نظريّ يوسّع من أفق القراءة ويبرز دور السّياق والتّاريخ والفراغات النّصية في توليد المعنى.

رغم الإحاطة الموضوعية السنكرونية التي أسّس لها Iser خاصة في اجتهاده العملي حول عنصر التصوير الذي يحدث ويلامس لحظة القراءة، في أنّيتها الموضوعية و تعالقتها مع النّص حتى يبيّن لنا أنّ القراءة إبداع، إلاّ أنّنا نصادف ذلك ماثلا في ثنايا التراث العربيّ حين يمزجون بين صناعة المفردة (الفصيحة) وعلاقتها بالسّامع، فحتما لا توجد رسالة نصية من دون قارئ إذ التّعزير التّراثي يبنّي على إطلاق عام للقارئ وإن تعدّدت صفاته ونعوته.

إنّ استدعاء النّص للمرجعيات الذهنية والفكرية الجديدة، ومزج يائوس بين العمل الظّاهراتي ونظرية القراءة، جعله يدخل طواعية ضمن مجموعة من المعطيات تتأسّس عبرها منطلقات القارئ وما يصنعه النّص من أفق انتظار وتوقّع ومسافة جمالية، فتحير النّصوص عند يائوس تستلزم حصرا تعدّد القراء، ولكنه رغم كل هذا الاهتمام إلاّ أنّ طبيعة القارئ (المتلقّي) وخصوصياتهم هي الفاصل في استمرارية العمل الأدبي، وهذا ما نجده عند الجاحظ و ابن طباطبا العلوي.

هكذا جاء بحثنا فاتحة لمجال البحث في إعادة قراءة التراث النّقديّ العربيّ في ضوء النّظريّات الحديثة، بما يتيح تأسيس مقارنة حوارية بين الأنساق النّقديّة المختلفة. ومن ثمّ فإنّ فعل القراءة يظلّ فعلا ديناميا يتجدّد بتجدّد القراء وسياقاتهم، ليؤكّد أنّ المعنى ليس معطى جاهزا وثابتا في النّص، بل هو إمكان مفتوح يتشكّل في كلّ مرّة يُقرأ فيها العمل الأدبيّ.

6- المراجع والمصادر

- 1- عبد الكريم شرفي، من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة، لبنان، الدار العربية للعلوم ناشرون، ط1/2007.
- 2- بول ريكور، من النص إلى الفعل، تر: محمد برادة، حسان بورقية، عين للدراسات والبحوث الإنسانية، ط1/2001.
- 3- خديجة غفيري، سلطة اللغة بين فعلي التأليف والتلقي، أفريقيا الشرق، 2012.
- 4- Nicolas Carpentiers; La lecture selon Barthes, Paris, 1999.
- 5- جان بول سارتر، ما الأدب؟ تر: محمد غنيمي هلال، بيروت، دار العودة، 1984.
- 6- وليام راي، المعنى الأدبي من الظاهرية إلى التفكيكية، تر: يوسف عزيز يوثيل، دار المأمون للطباعة والنشر، 1987.
- 7- رولان بارت، هسهسة اللّغة، تر: منذر عياشي، الأعمال الكاملة 5، مركز الإنماء الحضاري، 1984.
- 8- عمارة ناصر، اللغة والتأويل، منشورات الاختلاف، ط1، 2007.
- 9- حميد الحمداني، القراءة وتوليد الدلالة، المركز الثقافي العربي، ط2، 2007.
- 10- علي بخوش، تأثير جمالية التلقي في النقد العربي، منشورات مخبر: في نظريات القراءة، ط1، 2009.
- 11- فولفغانغ إيزر، آفاق نقد استجابة القارئ، تر: أحمد بوحسن، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، سلسلة ندوات، رقم 36، 1995.
- 12- فاطمة نصير، نظرية القراءة بين هانز روبرت يابوس و فولفغانغ إيزر (مقاربة للمفاهيم والمرجعيات والآليات) مجلة .
- 13- ناظم عودة خضر، الأصول المعرفية لنظرية التلقي، دار الشروق، ط1، 1997.
- 14- حميد لحميداني، مستويات التلقي، القصة القصيرة نموذجاً، مجلة دراسات سمائية أدبية لسانية، عدد 06، سنة 1992.
- 15- مطير بن سعيد بن عطية الزهراني، استقبال النص عند الجاحظ، إشراف: محمد بن علي فرغلي الشافعي، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، السعودية، 2004.
- 16- الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، تح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط07، 1998.
- 17- ابن البناء، الرّوض المربع في صناعة البديع، تح: رضوان بنشقرون، الرباط، دط، 1985.
- 18- محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، أفريقيا الشرق، المغرب، 1999.
- 19- المبرد، البلاغة، تح، رمضان عبد التواب، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، ط2، 1985.
- 20- قدامة بن جعفر، نقد الشعر، نقد الشعر، تح: محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتب العلميّة، لبنان، دط، دت.

- 21- أبو هلال العسكري، الصناعتين الكتابة والشعر، تح علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، بيروت المكتبة العصرية صيدا، ط1، 2006.
- 22- السكاكي، مفتاح العلوم، ضبط وتعليق: نعيم زرزور، دار الكتب العلميّة، لبنان، ط02، 1987.
- 23- ابن الأثير، المثل السائر، في أدب الكاتب والشاعر، قدّ و علّ: أحمد الحوفي، بدوي طبّانة، دار التّهضة، القاهرة، دط، دت، ج01.
- 24- الجرجاني، دلائل الإعجاز، تعليق وتصحيح محمد محمود شاكر، (د ط)، القاهرة، مكتبة الخانجي، (د ت).
- 25- الجرجاني، أسرار البلاغة، تعليق وقراءة محمود محمد شاكر، (د ط)، الناشر دار المدني، جدة.
- 26- بول ريكور: من النص إلى الفعل، أبحاث في التأويل، تر: محمد برادة، دار الأمان، 2004.

هوامش وإحالات المقال

- ¹ - عبد الكريم شرفي، من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة، لبنان، الدار العربية للعلوم ناشرون، ط1/2007، ص131.
- ² - شرفي عبد الكريم، المرجع السابق، ص131.
- ³ - بول ريكور، من النص إلى الفعل، تر: محمد برادة، حسان بورقية، عين للدراسات والبحوث الإنسانية، ط1/2001، ص89.
- ⁴ - خديجة غفيري، سلطة اللغة بين فعلي التأليف والتلقي، أفريقيا الشرق، 2012، ص33
- ⁵ - Nicolas Carpentiers; La lecture selon Barthes, Paris 1999, P36
- ⁶ - جان بول سارتر، ما الأدب؟ تر: محمد غنيمي هلال، بيروت، دار العودة، 1984، ص48.
- ⁷ - وليام راي، المعنى الأدبي من الظاهرية إلى التفكيكية، تر: يوسف عزيز يونيل، دار المأمون للطباعة والنشر، 1987، ص29.
- ⁸ - خديجة غفيري، السابق، ص37
- ⁹ - رولان بارت، هسهسة اللّغة، تر: منذر عياشي، الأعمال الكاملة 5، مركز الإنماء الحضاري، 1984، ص23
- ¹⁰ - عمارة ناصر، اللغة والتأويل، منشورات الاختلاف، ط1، 2007، ص112
- ¹¹ - عبد الكريم شرفي، من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة، السابق، ص141.
- ¹² - حميد الحمداني، القراءة وتوليد الدلالة، المركز الثقافي العربي، ط2، 2007، ص33
- ¹³ - علي بخوش، تأثير جمالية التلقي في النقد العربي، منشورات مخبر: في نظريات القراءة، ط1، 2009، ص31
- ¹⁴ - ينظر: فولفغانغ إيزر، آفاق نقد استجابة القارئ، تر: أحمد بوحسن، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، سلسلة ندوات، رقم 36، 1995، ص211.
- ¹⁵ - فاطمة نصير، نظرية القراءة بين هانز روبرت يابوس و فولفغانغ إيزر (مقاربة للمفاهيم والمرجعيات والآليات) مجلة، ص166
- ¹⁶ - ناظم عودة خضر، الأصول المعرفية لنظرية التلقي، دار الشروق، ط1/1997، ص16/15.
- ¹⁷ - عمارة ناصر، اللغة والتأويل، السابق، ص142.
- ¹⁸ - حميد لخميداني، مستويات التلقي، القصة القصيرة نموذجاً، مجلة دراسات سمائية أدبية لسانية، عدد06، سنة 1992، ص101.
- ¹⁹ - مطير بن سعيد بن عطية الزهراني، استقبال النص عند الجاحظ، إشراف: محمد بن علي فرغلي الشافعي، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، السّعوديّة، 2004، ص12.
- ²⁰ - الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص11
- ²¹ - ابن البناء، الروض المربع، تح، رضوان بن شريفة، ص87
- ²² - عمارة ناصر، اللغة والتأويل، السابق، ص55 (نقلا عن André Jacob)- مقدمات في فلسفة اللغة (ص85)
- ²³ - محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، م. س.، ص19-20
- ²⁴ - المبرد، البلاغة، تح، رمضان عبد التواب، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، 1985، ط2، م، ص81
- ²⁵ - خديجة غفيري، السابق، ص56.

- ²⁶ - ينظر: قدامة بن جعفر، نقد الشعر، ص 172.
- ²⁷ - أبو هلال العسكري، الصناعتين الكتابة والشعر، تح علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، بيروت المكتبة العصرية صيدا، ط 1، 2006، ص 7.
- ²⁸ - العسكري، الصناعتين، ص 141.
- ²⁹ - الجرجاني، عبد القاهر، دلائل الإعجاز، ص 202.
- ³⁰ - السكاكي، مفتاح العلوم، ص 176.
- ³¹ - حميد الحمداني، القراءة وتوليد الدلالة، السابق، ص 69.
- ³² - ابن الأثير، المثل السائر، ج 01، ص 65-66.
- ³³ - الجرجاني، دلائل الإعجاز، تعليق وتصحيح محمد محمود شاكر، (د ط)، القاهرة، مكتبة الخانجي، (د ت)، ص، 49.
- ³⁴ - الجرجاني، أسرار البلاغة، تعليق وقراءة محمود محمد شاكر، (د ط)، الناشر دار المدني بجدة، ص 9.
- ³⁵ - ينظر: بول ريكور: من النص إلى الفعل، أبحاث في التأويل، تر: محمد برادة، دار الأمان، 2004، ص 96.
- ³⁶ - الجاحظ، البيان والتبيين، ج 01، ص 75.